

## الفصل السادس

المقاصد الكبرى

لآيات عرض الشخصيات الواردة بكتاب الله تعالى

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾

[الأحزاب: ٢١]

﴿ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصفات: ١٨٢]

﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَارِ ﴾ [ص: ٤٧]

﴿ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أُقْتَدَةُ ﴾ [الأنعام: ٩٠]

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ [غافر: ٢٨]

«وأن الشخصيات معروضة للتأسي، وسبيله المعيشة، ولن يتحقق إلا بالاحتكاك المباشر بهم من خلال كلمات رب العالمين سبحانه وتعالى، وأن تعرف أن كلماتهم ومواقفهم لا تأتي من فراغ بل وراءها من التربية والجهد وسوابق الأعمال، ومأخذ خاص للحياة يتخذها العبد، وهدف يتغياها الشخص، فكما يتغيا الكثير تملك الأموال أو تبوء منصب أو كرسي معين، يتغيا المؤمن أن يكون قريباً من شخصيات هذا الكتاب الكريم هدفاً لحياته».

## مقدمة

في هذا الفصل قصدنا إلى عرض باب عظيم وكنز ضخم في التربية تضمنه كتاب الله تعالى .. فلا يكفي مجرد العلم بهذا الدين أو تلقي المعتقد الصحيح .. بل لا بد من التربية وتمثل قيم الإيمان ومعايشتها فيمن تمثلت فيهم بمستويات فائقة رضيها الله تعالى من أصحابها وأئسني عليهم .. في أروع نماذج بشرية اختارها الكتاب العزيز لعرضها ممثلة في الأنبياء والصحابة والمؤمنين المجاهدين على مر العصور .. أخوة على دين واحد مهما اختلفت شرائعهم.

وقد قصدنا في هذا الفصل نقطة أساسية وهي معرفة: (أن الفارق الكبير في القدرة على الاحتكاك بالأنبياء وغيرهم هو أن تعلم العمق الذي كان وراء الكلمة والعمق وراء الموقف، وهذه هي النقطة الفارقة في الأمر.

إن الكلمة أو الموقف الذي يذكره القرآن لن تفهم قيمته ولن تتأسى به وتتأثر كذلك إلا إذا علمت أن وراء الكلمة والموقف والعمل بُعد وعمق هو الذي أنتج هذا، وهو الذي يجب أن تبحث عنه؛ فالأسوة إنما تكون بظاهر الحال وباطنه من المعاني التي تدفع لهذه المواقف والأعمال).  
والمهم أن لا يغيب عنك عمق الأمور، سواء:

العمق الشخصي لتعرف شخصيته وكيف رباها وتباها وزكاها وكيف نطق بالكلمة أو اتخذ موقفاً ما فتعرف أن له أبعاداً شخصية، وأن عليك بذل هذا الجهد لتكون جاهزاً في المواقف.

والعمق الإيماني وأبعاده من التربية وترسيم التعبد والإحسان، والتعرف على الله، وتربية النفس ومرانها وتعويدها على المعالي، وإبائها عن النزول عن القمم.

وأن الشخصيات معروضة للتأسي، وسبيله المعاشة، ولن يتحقق إلا بالاحتكاك المباشر بهم من خلال كلمات رب العالمين سبحانه وتعالى، وأن تعرف أن كلماتهم ومواقفهم لا تأتي من فراغ بل وراءها من التربية والجهد وسوابق الأعمال، ومأخذ خاص للحياة يتخذها العبد، وهدف يتغياها الشخص، فكما يتغيا الكثير تملك الأموال أو تبوء منصب أو كرسي معين، يتغيا المؤمن أن يكون قريباً من شخصيات هذا الكتاب الكريم هدفاً لحياته.

إن المقصود أن التربية لن تحدث إلا من خلال معاشة واحتكاك يقصد بها استبيان هذه الشخصيات العظيمة وخصائصها وصفاتها للانطباع بهم والتغير بالتأثر بهم.

وذلك لثلاث نركن إلى بيئاتنا المعاصرة، وهي بيئات هزيلة مترعة بالشهوات والانحرافات، ومتسمة بالميوعة والضعف وبالالتواء ..

ومتسمة أيضاً بالذل والخوف والاستعباد .. كما يغلب عليها السطحية وتفاهات الأمور ..

فالذهاب إلى هؤلاء الكرام وعلى رأسهم خير الخلق محمد ﷺ فوز عظيم وفرصة هامة للخروج من تأثير هذه البيئة التي يتحكم فيها اباحيون وشواذ وملحدون ومستأجرون وملعمون.

والجهد المبذول في هذا الفصل كان في استكشاف بُعد كلماتهم ومواقفهم لمعرفة ما وراءها من صفات شخصية فذة وعمق إيماني عظيم ..

والمقصود استنهاض همم المسلمين لتكوين العمق الفردي للشخصية المسلمة المعاصرة لتكون النوعية الموجودة نوعية فريدة ومتميزة وعلى مستوى التحدي كشخصيات فذة قادرة على المواجهة والخروج بالأمة من حالة القهر والغيوبة والفشل ... وللنجاة الشخصية أمام الله تعالى في الآخرة ..

والله تعالى من وراء القصد وبه التوفيق وعليه التكلان سبحانه ..

المقصد العام في الآيات التي عرضت الشخصيات المؤمنة هو

الاحتكاك بهم ومعايشتهم للتأسي والإنطباع بهم ..

وذلك بمعرفة العمق الذي كان وراء الكلمة ووراء الموقف .. العمق الشخصي .. والبعد الإيماني

وهذا المقصد العظيم هو الذي نتبعه في هذا الفصل ..

فقد عرض القرآن الكريم شخصيات كثيرة .. شخصيات بشرية خيرة .. عرضها خلال القصص الكريم .. وكان يمكن أن نعرض لها خلال الحديث عن القصص .. لكننا آثرنا أن نترك القصص لمغزى محدد عن طبيعة دين الله تعالى وطبيعة تحركه لتصحيح انحراف النفوس بأفكارها وشهواتها وتصحيح الأوضاع الظالمة والمنحرفة.

\*\*\*

لقد ذكر الله تعالى شخصيات في كتابه لا تكاد تُصدق أن الله تعالى يذكر كل هذا الثناء على أشخاص مثلنا كانت لهم دوافع كدوافعنا وضعف كضعفنا وطبيعة بشرية كطبيعتنا .. لهم نفس المشاعر والآمال والأشواق، يذكر تعالى سلامه عليهم في العالمين إلى يوم القيامة .. يلقي عليهم سلامه جملة: ﴿ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾.

ويلقيه على بعضهم اسمًا اسمًا، كما في سورة الصافات: ﴿ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (٧٨) سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿الصافات: ٧٨-٨٢﴾. ﴿ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (١٠٨) سَلِّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿الصافات: ١٠٨-١١١﴾.

﴿ وَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ (١١٢) سَلِّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١١٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿الصافات: ١١٩-١٢٢﴾.

﴿ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (١١٨) سَلِّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١١٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿الصافات: ١٢٩-١٣٢﴾.

يقول النسفي: ﴿ وَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ من الأمم هذه الكلمة وهي: ﴿ سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ يعني: يسلمون عليه تسليمًا ويدعون له وهو الكلام المحكي كقولك قرأت سورة أنزلناها (في العالمين) أي ثبت هذه التحية فيهم جميعًا ولا يخلو أحد منها كأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح وأداه في الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾، علل مجازاته بتلك التكرمة السنينة بأنه كان محسنًا: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾، ثم علل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا مؤمنًا ليريك جلاله محل الإيثار وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم<sup>(١)</sup>.

أشخاص عاشوا على الأرض بدوافع بشرية وحاجات بشرية وضعف بشري.

كذلك لا تكاد تصدق عظم هذا المديح لهؤلاء الكرام، مديح يمدحهم الله به عن علمه بحقيقتهم، يمدح ظاهرهم وباطنهم، لا كمن يمدح ظاهراً قد يكون الباطن بخلافه أو أقل منه، فانظر إلى مثل هذا المدح لسليمان عليه السلام: ﴿ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]، ومثله لأيوب عليه السلام: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤].

هكذا يقول الله تعالى لعبد عاش مثلنا بنفس طبيعتنا لم يخرج عنها يقول فيه: ﴿ نِعَمَ الْعَبْدِ ﴾.

وانظر إلى حبه لهم ووعدهم إياهم بأشخاصهم يقول الله تعالى في شأن داود: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَقَابٍ ﴾ [ص: ٢٥]، ومثلها لسليمان: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَقَابٍ ﴾ [ص: ٣٩-٤٠]، والزلفى هي القرب، وانظر لهذا الثناء العظيم: ﴿ وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا الَّذِينَ هَمَّ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي ﴾ [ص: ٤٥]، يعني: القوة في العبادة، ﴿ وَالْأَبْصَرِ ﴾ يعني: العلم واليقين والبصيرة النافذة بهما، ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَى الدَّارِ ﴾ (٤٦) وَلَهُمْ عِنْدَنَا لِمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٧﴾ وَأَذْكُرْ اسْمِعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٦-٤٨].

وقال تعالى عن موسى: ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ [ص: ٦٩].

\*\*\*

شخصيات وصلت للقامة بحيث صار واقعها آية من الآيات يحتج الله سبحانه وتعالى بها على المشركين .. فيعدها آية وحجة، فقد بلغ مطابقة قوله ﷺ لعمله وشيمه وصفاته بحيث صار واقعه ﷺ آية لمن ينظر إليه ، آية يُستدل بها على النبوة، وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْتَدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ [يونس: ٤٣].

يقول الحافظ ابن كثير: «أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهسى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

شخصيات يغضب الله تعالى لهم ويتصر لأجلهم مصداقاً لقوله: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ [غان: ٥١]، ولقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]، ولقوله تعالى في الحديث القدسي: «إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب» أي: أخذ ثأرهم ممن عاداهم كما يأخذ الليث الحرب ثأره<sup>(٢)</sup>.

فانظر إلى دعوة رجل يتغير من أجلها الكون: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴾ (١٠) فَفَنَحَّاتُ آبُوبَ السَّمَاءِ بِمَاؤُ مِنْهُمْ (١١) وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عِيُونًا فَالْفَى الْمَاءِ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدِيرٍ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ

(١) تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٥٥٠.

(٢) مجموع الفتاوى، ج ١١، ص ١٦٠.

كُفِّرَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ بَسَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿القم: ١٠-١٧﴾.

لقد تغيرت الحياة من أجل هذا الرجل الكريم مع اشتداد غضبه تعالى على أعدائه .. فيألي أي مدى كان حبه تعالى لهذه الشخصية البشرية الكريمة !؟.

وانظر إلى هذه الكلمة التي قالتها مدين في شأن شعيب عليه السلام: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ ﴾ ، ولم يترك سبحانه وتعالى لهم هذه الكلمة بل أعلن للعالمين ولهم أنها كلمة كاذبة كذبها الله تعالى، وأن شعيباً والمؤمنين معه لم يخسروا، وأن اتباع شعيب ليس خسراناً بل مخالفته هي الخسران، وأن أعداءه هم الخاسرون، وأعلن هذا إلى يوم الدين يقرؤه الخلق دائماً حتى يلقون الله تعالى، فذكر تعالى إهلاكهم فقال: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴾ ، ثم ذكر من هو الخاسر فقال راداً على كلمتهم: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٠-٩٢].

بل أكثر من هذا أنه تعالى ذكر تنوع عذاب مدين من الصيحة إلى الرجفة إلى عذاب يوم الظلة وكان هذا رداً على مواقفهم المختلفة من نبيه عليه السلام، يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في كلام نفيس: «يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿ لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ ﴾ ، فلماذا عقبه بقوله: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴾ ، أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدهم بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينًا ﴾ ، والمناسبة هناك والله أعلم أنهم لما تهكموا به في قولهم: ﴿ أَصَلُّوْنَاكَ تَأْمُرُكَ .. ﴾ الآية، فجاءت الصيحة فأسكتتهم، وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ الآية. فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة وقد اجتمع عليهم ذلك كله: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ ، وهي سحابة أظلمت فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخذت الأجسام: ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينًا ﴾ (١).

وانظر الى ما قاله قوم نوح له عيه السلام: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي صُلَيْبٍ مُّيمِنٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وكأنهم يرون!! فيرد ربنا تعالى عليهم بعد هلاكهم ليقراً الخلق جميعاً هذا الرد الى يوم القيامة ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤]، وهذا الرد صريح أنهم لا يرون شيئاً!.

هؤلاء الكرام إنما ذُكروا عمومًا للتأسي. لكن هذا التأسي كيف سيحدث إن لم يكن هناك معاشة لهم بحيث يحدث احتكاك فتنتطح نفوسنا بهم؟. هذا هو الذي نريد استعراضه هنا.

إننا نحتاج إلى معاشة تصل لدرجة الاحتكاك لتنطح نفوسنا بهم .. وقد يتعجب البعض كيف يحدث الاحتكاك من خلال آيات قصيرة؟.

لكن لا بد أن نعلم أنه بالإضافة إلى عظمة كلام رب العالمين وخاصة القرآن في أن الكلمة والجملته تحوي معاني كثيرة وقدرة على التصوير الحي كأنك تعيش الكلمة يقولها الشخص بقسماته ونبراته ..

بالإضافة إلى هذا فإن الفارق الكبير في القدرة على الاحتكاك بالأنبياء وغيرهم هو أن تعلم العمق الذي كان وراء الكلمة والعمق وراء الموقف، وهذه هي النقطة الفارقة في الأمر.

إن الكلمة أو الموقف الذي يذكره القرآن لن تفهم قيمته ولن تتأسى به وتتأثر كذلك إلا إذا علمت أن وراء الكلمة والموقف والعمل بُعد وعمق هو الذي أنتج هذا، وهو الذي يجب أن تبحث عنه؛ فالأسوة إنما تكون بظاهر الحال وباطنه من المعاني التي تدفع لهذه المواقف والأعمال. ولهذا فللعلماء هنا مأخذان:

الأول: أن يتأسى بالظاهر ويحاكيه حتى يتأثر باطنه ويتجاوب مع هذا المستوى.

الثاني: هو التأثر بالمعاني وبالمأخذ حتى يتجاوب الظاهر مع هذه الأعمال العظيمة<sup>(١)</sup>.

وعلى كل فالهم هو معرفة أن المأخذ في موضوع التأسي ليس بطواهر فقط من الأعمال أو الأقوال، وسواء أخذ العبد هذا المأخذ أو ذاك .. أو أخذ هذا في بعض الأحوال والآخر في أحوال أخرى .. فالأمر حسب ما تيسر للعبد لكن المهم أن لا يغيب عنك عمق الأمور، سواء:

العمق الشخصي لتعرف شخصيته وكيف رباها وتهاها وكيف نطق بالكلمة أو اتخذ موقفًا ما فتعرف أن له أبعادًا شخصية، وأن عليك بذل هذا الجهد لتكون جاهزًا في المواقف.

والعمق الإيماني وأبعاده من التربية وتركيم التعبد والإحسان، والتعرف على الله، وتربية النفس ومرانها وتعويدها على المعالي، وإبائها عن النزول عن القمم.

هذه هي النقطة الفيصل في الأمر للوصول إلى هذا الهدف.

\*\*\*

تُعرض شخصيات للتأسي، وسبيله المعاشة، ولن يتحقق إلا بالاحتكاك المباشر بهم من خلال كلمات رب العالمين سبحانه وتعالى، وأن تعرف أن هذه الكلمات لا تأتي من فراغ بل وراءها من التربية والجهد وسوابق الأعمال، ومأخذ خاص للحياة يتخذها العبد، وهدف يتغياها الشخص، فكما يتغيا الكثير تملك الأموال أو تبوء منصب أو كرسي معين، يتغيا المؤمن أن يكون قريبًا من شخصيات هذا الكتاب الكريم هدفًا لحياته.

كذلك لا بد من بيان أنه مع الاصطفاء الإلهي لهؤلاء واختيارهم فلم ينزل هذا الاجتباء لهم وهم منصرفون أو أنهم لم يكن لهم جهدهم للوصول، سواء قبل الاصطفاء وبعده كما في شأن يوسف وموسى، فقال تعالى في شأن يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، وقال جل جلاله في شأن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]، أو بعده كما قال في شأن لوط: ﴿فَقَامَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

فكما هناك اصطفاء واجتباء رباني فهناك أيضًا من الجهد ومن العمل ما كانوا به أهلاً لهذا، فأرجو أن لا يُهمل هذا المعنى، لأن الكثير يُحِيل رفعة المستوى في مثل هذه المواطن للاختيار الإلهي - وهو حق وحقيقة - لكن كأننا نزل على غير سبب حكيم، ولكن قد ذكر سبحانه أيضًا جزء آخر من الحقيقة هياهم بها لتلقى اختياره واصطفائه، فذكر تعالى أنهم كانوا محسنين - كما ذكرنا عن موسى ويوسف عليهما السلام - وأن هذا الإحسان كان تأهيلاً لقلوبهم أن تنهياً لتلقي هذه النعم وليكونوا أهلاً لها: لتلقيها، وللقيام بها، وللحفاظ عليها، والارتفاع بها، وأن الاختيار الإلهي اختيار حكيم ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾<sup>(١)</sup>، والله تعالى يسبب هذه الأسباب تهيئة لاصطفائه تعالى، هذا مع عون رب العالمين المبذول لمن توكل عليه من خلقه جميعاً.

وإن لم نفهم هذا فقد نغلق باب التأسي تمامًا، بينما ربنا سبحانه قد أمرنا بالتأسي برسول الله وهو أعلى مستوى بشري وأعظم الخلق تعبدًا لله تعالى، والعبد يُقسَم له بحسب جهده وبحسب صدقه وبحسب عون الله له من خلال هذا التأسي ما يصير به أعجوبة للخلق في كل زمان وفي كل بيئة حتى يعجب الخلق أن هناك من غير الأنبياء من يمكن أن يصل لهذا المستوى، وهذا مع حفظ مقامات الأنبياء الكرام، وأنه لا يكون أحد يساويهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالأنبياء خير من جميع الأولياء، لكن المقصود فقط هو فتح باب التأسي وبيان مأخذه.

\*\*\*

وقبل الشروع في بيان أمثلة توضيحية لهذا القصد .. نبين أن الشخصيات المؤمنة التي جاءت في القرآن ثلاثة أضرب:

- الأنبياء، وسيدهم وخاتمهم محمد ﷺ.
- شخصيات مؤمنة لها مواقف عظيمة، وخيرهم الصحابة.
- أمثلة لنساء مؤمنات وأزواج رسوله الطيبات الطاهرات.

\*\*\*

(١) وهذا الاختيار اختيار حكيم يختار الله تعالى أفضل الخلق؛ فقد روى مسلم في صحيحه: «عن أبي عمار شديد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم». صحيح مسلم ج٤، ص ١٧٨٢، رقم ٢٢٧٦.

### أولاً: استعراض هذا المقصد مع الأنبياء

هؤلاء هم صفوة خلق الله، وهؤلاء هم الذين ذكر الله تعالى سلامه عليهم وأبقاه عليهم دائماً في العالمين، وإنه لكشرف، وأثنى عليهم أن لهم القرب عنده (الزلفى) وأنهم الأخيار وأنهم أصحاب القوة في التعبد كما أنهم أصحاب اليقين والبصيرة، وهذا الثناء عليهم - مع الاصطفاة - لأنه كان لهم من العمل والاجهد للوصول لهذا ما استحقوا ثناء الله تعالى عليهم.

والاحتكاك بهم يورثك: رؤية واضحة .. وعمق .. وشخصية ثابتة .. وعزم راسخ .. وغيرها كثير.

ولنتظر نظرات عابرة تليق بطبيعة العرض العام لهذا الموضوع في كتاب الله تعالى، مع ملاحظة أننا لم نقصد الى الترتيب لا حسب السور ولا حسب التفاضل ..

\*\*\*

من أبرز الأنبياء الذين أفردت لقصتهم سورة كاملة يوسف عليه السلام ولنتظر في هذه الحقائق من خلال بعض المواقف:

١- لقد فارق أباه صغيراً، لكن هناك من المفاهيم والمعاني والقيم التي شربها من صغره ما أخذها بوعاء صافي نظيف وحافظ عليها وتآها ولم ينس، وهذا لتقف أمام طبيعة هذا البيت الصادق في تدينه والتزامه بهذا الدين الذي يتشرب فيه الصغير حتى في هذا السن من القيم والمعاني والعلم والمعرفة بأصل هذا الدين ما لا ينساه إن انفرد وحده وتغيرت به الظروف والأحوال، حتى لو صار بين قوم على غير هذا الدين ووسط أوضاع منحرفة نتجت عن هذا الشرك .. أوضاع تصير فيها الشهوات مع الترف هو الشغل الشاغل ومجال التنافس بين أهله، هذا ناهيك عن النسيان والانصراف عن رب العالمين وحقوقه، فمع كل هذا لا ينسى يوسف إن نسى الآخرون، ولا ينحرف كما انحرفوا ولا يتخلى عن دينه كما يفعلون، ولا ننسى حفظ الله تعالى له وعصمته له، لكنه تعالى يقدر الأسباب، فهذا الحفظ وهذه العصمة تأتي مع قلب متوجه لله لا ينسى ما رضعه في صغره.

٢- يَرُوغُ القارئ كثيراً موقفه وصبره عن الشهوة الحرام وأنه نجح في هذا الاختبار .. لكن يفوت الكثير لماذا نجح. وهذا طبعاً مع العصمة ولكن لا يحال عليها فقط على سبيل الاختصار وإلا لما كانت هناك فرصة للتأسي بهم ولأعتذر الخلق بأنه معصوم، وكما قلنا فالله تعالى يقدر الأمور بأسبابها، وهذا من حكمته جل وعلا، وقد ذكر تعالى هذا السبب الذي هو - مع الموقف - محل الأسوة.

هناك عمق واضح قبل هذا الموقف اكتسبه يوسف وهو واضح تماماً في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ

ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ [يوسف: ٢٢].

وهذه الآية جعلت مقدمة للموقف للدلالة على أن ما تعلمه وتلقاه في صباه في بيت النبوة حفظه في وعاء نظيف وفطرة مستقيمة، وأنه لم يكتف بهذا بل أنه بذل جهده لبلوغ أعلى مستوى وهو الإحسان:

- الإحسان بشقه العلمي: بصيرة تصل لدرجة اليقين والرؤية، كأنه يرى من خلال يقينه وعلمه بقلبه كما يرى المبصر بعينه.

وانظر إلى إشارات ابن القيم في قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبا: ٦]، لم يقل: ﴿ويعلم الذين أوتوا العلم﴾، بل جعل العلم لهم رؤية يرون من خلاله، كذلك العلم المذكور في صفات أولى الأبواب في سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذُرُ الَّذِينَ أُوتُوا الْآيَاتِ﴾ [الرعد: ١٩]، جعل مقابلهم: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾، للدلالة على أن صاحب العلم يرى من خلاله.

هذا الإحسان بذل يوسف الجهد للوصول إليه في رؤيته ولا يصل أحد إليه إلا بالجهد.

- والإحسان بشقه العملي التعبدى: بحوز المعالي وفي الاستباق في الخيرات بعد استيفاء الأوامر، والحساسية من المحرم وشبهاته وما يقارب منه.

- والإحسان مع الخلق بعمل الذي هو أحسن؛ كلمة وعملاً وعتاءً وصفحاً وظناً.. وغيره.

كان هذا هو الجهد المبذول في مرحلة شببته وهذا هو الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نُجَيِّزُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فلما كان الموقف الذي فيه الابتلاء وجد عنده من الرصيد ومن المخزون الذي جهد فيه، مع توكله على ربه وافتقاره إليه ما لم يقع به في الفتنة، ورأى واعظ الله في قلبه الذي دفع خطرة الهم البشري الذي جاء بعد الموقف الصلب ورده إلى الموقف الصلب بل والقرار، بل والقرار النهائي؛ شراء ما عند الله وبغض ما يبغضه وإيثار مراد الله على مراد النفس بل لم يجد في نفسه إلا إرادة مراد الله بعد طرد الخاطر العابر.

لو أن رجلاً قليل الديانة ضعيف المراقبة معتاد انتهاك الحرمة وهتك ستر ما بينه وبين الحرام فهل ينجح في موقف يُجَيَّر فيه بين داعي ربه وداعي نفسه؟ فلنراجع نفوسنا إذن.

هنا تكون المعاشة وهنا يكون الاحتكاك فتحدث الأسوة ومن ثم التربية.

٣- لم نجد يوسف عليه السلام منشغلاً بالانتقام مملوءاً بالحقد يحلم بيوم الانتقام من إخوته. ولو كان كذلك لكان بثُّ شكواه أعلى من طرح عقيدته على صاحبي السجن، وقلبٌ مملوءٌ حقداً كيف يكون أهلاً للرسالة التي هي بذل الخير للخلق كلهم وبلا مقابل بل مع توطين النفس على تحمل الأذى من الخلق ابتغاءً للخير لهم: ﴿وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾؟ [إبراهيم: ١١٢].

قد يكون موجوعاً أو متألماً لكنه لم يعم قلبه بحقد، ولم يقصر همه للانتقام، ولما جاءت الفرصة لم ينتقم ولو كان كذلك لسارع بالانتقام عند أول رؤية من أول يوم وفي أول موقف .. حتى شهدوا له بالإحسان، بل خاطبوه باسمه: ﴿فَخَذَّ أَحَدُنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]، لما تحققوه فيه.

من أين جاءت طهارة القلب هذه؟.

هناك قاعدة: أن القلب الفارغ من الخير ينزل فيه الشر، وكما يقول ابن القيم أن الشر يأتي من انعدام الخير<sup>(١)</sup>؛ فلا بد أن يكون قد ملأه باهتمامات وانشغالات ومعانٍ علياً ورؤية وبصيرة، وعملاً وهماً وقصدًا، وإرادة خيرة ربانية تجعله أهلاً للرسالة وأهلاً للصبر عند القدرة كما صبر عند العجز. وللصبر على الألم في السجن كما صبر على الشهوة المحرمة في الحرية.

هنا تأتي المعاشية ويأتي الاحتكاك ويأتي البحث عن هذه المعاني التي رباها في نفسه لتربيتها في نفوسنا ونشغل بها ونقلق كثيرًا عند افتقادها.

٤- تقف كثيرًا وتُعجب بقوة الصبر التي تميز بها: صبر على تعبداته وصبر على معتقده بين مخالفين وواقع مضطرب وممتلى بما يغمر في النسيان والانشغال كما قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرٍ مِنْ هَذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]، زيادة على الصبر على ألم فقدان الأهل، وألم الأخوة المفقودة والشعور بأن هناك من يريد قتله، وصبر على شهوة محرمة ودواعيها البشرية أكثر من موانعها، وصبر على سجن وقيد، وظلم عقب ظلم سابق، وتهمة في أعز ما يملك: (عرضه) وفي أكثر ما يهتم به: (علاقته بربه) ثم صبر على رفقاء لا يعرفون الله ولا يؤمنون به ثم صبر على القوة والنفوذ والملك ورؤية من ظلمه ضعيفاً ذليلاً متردداً على الباب يقول: ﴿وَصَدَقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]، فيحسن إليهم ويعفو ويصفح بل ويلتمس لهم العذر!! ثم صبر على تجمع الرسالة والملك والأهل والفضل فيهرب ليسأل: ﴿تَوَقَّئِ مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وهنا الزهد الحق.

من أين جاء بكل هذا؟ فلتنظر إذن ملياً.

٥- ومن أين جاء بقوة الصبر هذه.. جاء من ظلمته منكسرين محتاجين فيذكركم ويلتمس لهم العذر مع التذكير: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾، ثم بكلمة يمسخ الآلام سنين طوال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، بل وبلا عتاب: ﴿لَا تُثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]، لا لوم لا عتاب .. تبارك من ربّي مثل هذه الشخصية الكريمة.

من أين جاء بكل هذا الصبر؟ ومن أين جاء بكل هذا الصبر؟.

صبر أعجب به النبي ﷺ حتى قال فيها رواه ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحي الموتى. قال أولم تؤمن؟ قال

(١) يقول رحمه الله: «فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه» مدارج السالكين، جـ ٢، ص ١٩٩.

بلى. ولكن ليطمئن قلبي. ويرحم الله لو طأ لقد كان يأوي إلى ركن شديد. ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»<sup>(١)</sup>، وهذا من تواضعه ﷺ<sup>(٢)</sup>.

هذا ما يجب أن نبحث عنه، وعندما نسمع موافقه نعايشها ونعلم ما وراءها من شخصية. وهذه الشخصية كيف رباها وتآها - مع عصمة الله واختياره - هذا لا بد من تنميته والاستعانة بالله فيه (وما صبرك إلا بالله) نحن طاقنا لا تقوى على هذا لكن هناك حول الله وقوته والاستعانة به في مران النفس وتعويدها أن تصبر، وقد أعلن يوسف عليه السلام مناط الفوز ومناط هذه التربية في نهاية الأمر: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠]، والتقوى هي: فعل المأمور، والصبر هو: الصبر على المقدور، ولا يمكن التقوى إلا بالصبر، إنها قاعدة كل مظلوم وكل من يريد الوصول إلى ربه، إنها قاعدة ذهبية.

هنا المعاشة والاحتكاك والتربية.

\* \* \*

يُرْوَعُكَ فِي نَوْحِ صَبْرِهِ وَطَوْلِ مَدَّةِ دَعْوَتِهِ وَإِنْذَارِهِ يُرْهَبُ ثُمَّ يُرْغَبُ، يُسِرُّ ثُمَّ يُعْلِنُ، يُلْحَقُ، يَدْعُوهُمْ فِرَادَى وَجَمَاعَاتٍ .. حَتَّى يَرُودَ أَنْ الرَّجُلَ كَانَ يَقُولُ لِابْنِهِ: (حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي أَنْ لَا أَسْمَعَ لِهَذَا الرَّجُلِ). هَذَا مَحَلُّ أَسْوَةٍ.

ما حجم وطبيعة الرباط الذي كان يربطه بالله تعالى طوال هذه الفترة؟ وكيف بقيت الجذوة مشتعلة في قلبه للدعوة؟ كيف لم يفتر؟ أي معين كان يستقي منه .. أي علاقة ندية مع ربه كانت تُحْيِي له مرارة ما يلاقي ..

كيف استعذب السنين الطوال عطاءً لله؟ أي أمل كان يحده .. وأي خوف من التقصير في البلاغ كان يؤرقه فلا يفتر؟ أي تعظيم لربه ولأمر ربه كان يباهه قلبه فلا يقصّر ..؟.

ما حجم لقاء ربه في قلبه؟ وما حجم الجنة؟ وما حجم رضوان الله الذي يرجوه عندما يلاقيه كان يهون عليه السنين بل مئات السنين وهو داع لربه لا يفتر؟.

هنا المعاشة والاحتكاك لمن أراد التربية؟! التأسى به في الصبر، والتأسى به في المعاني التي كانت وراء هذا الصبر العظيم والرباط المستمر.

\* \* \*

(١) سنن ابن ماجه ج ٢، ص ١٣٣٥، قال الشيخ الألباني: صحيح.

«لأجبت الداعي»: المقصود مدح يوسف بأنه بلغ من الصبر والتأني غاية.

فإنه لما جاءه رسول الملك ليخرج من السجن بعد تأويله رؤيا الملك لم يبادر بالخروج ولم يُجِبِ الداعي الذي دعاه لمقابلة الملك، بل طلب البحث أولاً عن حقيقة التهمة الظالمة التي اتهم بها لتظهر براءته قبل خروجه، فمن تواضع رسول الله ﷺ أن قال أنه لو كان مكان يوسف لتعجل إجابة الداعي قبل ظهور البراءة، وهذا من تواضعه عليه الصلاة والسلام وإظهار ميزة يوسف ومدحه بهذا الصبر والتأني.

(٢) وصفح لم يرض أن ينزل عنه رسول الله ﷺ لما جاءه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أمية بن المغيرة وكانا من أشد أعدائه وأشد الخلق تأليباً عليه وتأخر رسول الله في الصفح عنهم حتى نصحتهما أم سلمة أن يقولوا له ما قال أخوة يوسف: ﴿ نَالَهُ لَقَدْ أَتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾، فإنه لم يرض بأقل من جواب يوسف وقد كان، ﷺ..

تقف كثيرًا أمام هذه الشخصية الفريدة .. شخصية إبراهيم عليه السلام:

١- وضوح رؤية تام، وقوة في بصيرته بأن يرى الأمور على حقيقتها وقوة وضوح تمنعه أن يُجَدِّع، ولم يقف عند هذا الحد بل قوة في المبادأة والعمل والمواجهة.

عندما يقول: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَأَزَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَ إِذْ يَضُرُّوكَ بِالْأَصْنَامِ ﴾ [الأنعام: ٧٤]، بكل هذا الوضوح: يذكر صفة ﴿ أَصْنَامًا ﴾ قبل أن يذكر ﴿ ءَالِهَةً ﴾ ليُظْهِرَ هذه الحقيقة، بل يفهم

بقوة وثبات: ﴿ إِنِّي أَرَأَيْتَ إِذْ يَضُرُّوكَ بِالْأَصْنَامِ ﴾ أي قوة هذه؟.

قوة في الوضوح وقوة في العمل والمواجهة.

وانظر في موضع آخر يقول تعالى عنه: ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ ﴾ [٥١] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ زَكَّرْتُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿ [الأنبياء: ٥١ - ٥٦]، يذكر صفة ﴿ التَّمَاثِيلُ ﴾ أولاً لأنها الحقيقة، ثم وصف ما يفعلون من الشرك المفترى.

وفي موضع ثالث يقول تعالى حاكياً عنه ما قاله لقومه: ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [٨٤] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيفَكَ ءَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الصافات: ٨٤ - ٨٧]، أكذباً وافتراءً واختلاقاً تتخذون آلهة، ويذكر الاختلاق والافتراء والكذب أولاً لبيان حقيقة الحال التي يراها.

وأما المبادأة: فإنه نفس هذا الضلال من أساسه وكسر أصنامهم وأهانها ودفعهم لمواجهته، ثم لما واجهوه عرّاهم حتى بان عوارهم أمامهم: ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [٨٤] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيفَكَ ءَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿، ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَيَّرُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَمَا هَتُؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَبَلَّغْتُمْ لَكُمْ وَإِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿ [الأنبياء: ٦٤ - ٦٧].

أي شخصية هذه؟ هذا الموقف ورائه بُعد لهذا العبد العظيم يجب البحث عنه والتأثر به .. فتربية الوضوح والبصيرة، وتربية الموقف والعمل والمبادأة، وعدم الغوغائية وعدم السلبيية وعدم الانسياق وراء كل ناعق أو راقص أو سفيه أو تافه كما في أيامنا .. إنه لم يسمح لأحد أن يستخف بعقله .. هذا يحتاجه اليوم كثيراً.

لم يتلاعب بواقعه بل رآه كما هو .. ثم فزَّعهم حتى دفعهم لمواجهة مواجهة غير مسبوقة فنصره الله وأعلى سعيه، وخذلهم ورد كلمتهم.

هذا يحتاج إلى معايشة لتتغير شخصياتنا التي هي نتاج الأوضاع الدلييلة والمترعة بالشهوات.

٢- التسليم إلى آخر حد، حتى ذبح ابنه .. والتسليم قبلها بترك الأهل بوادٍ غير ذي زرع.  
 ٣- التوكل، الثقة في الله، واليقين به، وحسن الظن فيه، والتفويض إليه، والاعتماد عليه  
 اعتمادًا كاملاً .. كان هذا حاله عندما أُلقي في النار .. وعندما هاجر .. وعندما ترك أهله  
 بالحجاز .. وحين هم بذبح ولده. وهكذا دائماً ..  
 لكن هل كان هذا وليد لحظة؟.

إن التوكل قوة ضخمة يقطع به الإنسان في لحظات ما يقطعه غيره في سنوات، ويقوى به  
 على ما لا يقوى عليه غيره في التعبد وفي تغيير الحال وفي المواقف.  
 فالتوكل به يتعبد الإنسان وبه يغير نفسه، وهو يحتاج إلى مران وتدريب قلبي حتى  
 يخلص اعتماده على الله تعالى - مع الأخذ بالسبب - وهو ما يعبر عنه المسلم بقوله " لا حول  
 ولا قوة إلا بالله".

\*\*\*

يُرْوَعُك في يعقوب الصبرُ بل أضاف إليه الصبر الجميل .. بل أضاف إليه حسن الظن بالله  
 بل أضاف إليه الثقة فيه واليقين .. وانتظار الفرج ..

يفقد ابنه فيكون ﴿صَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ثم يفقد الآخر، والثالث منقطع لا يريد الرجوع .. واحد مفقود  
 والآخر مسترق لسنة والثالث لن يعود، ويشير بهذه بعد تلك فيزيد البلاء فيزيد الصبر ويضيف إليه  
 تعبدًا آخر .. في الأول قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ولما زاد البلاء قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ  
 جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]، ثم زاد وجع قلبه حتى ابيضت عيناه فزاد عبودية ثالثة: يتلمس فرج الله ويتنظره  
 محسنًا للظن بربه واثقًا فيه.

- لا ينتظر كشيخ كبير مكلوم ليكون محل شفقة ! - بل يطلب المبادأة: ﴿يَنْبَغِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ  
 يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، ولا يكفي حتى يكون هو الناصح والموجه والموصي بحسن التعبد لله وأن تكون  
 قلوبهم على رجاء من رب العالمين أثناء بحثهم عن أخيهم: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ  
 اللَّهِ إِلَّا الْكُفْرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

الصبر والصبر الجميل وحسن الظن والثقة واليقين وانتظار الفرج كل هذا يحتاج لمران  
 وتعود واستهداف لتتربى عليه ..

زيادة العبودية مع زيادة البلاء .. هذه نقطة فارقة .. كيف نكون هكذا؟.

ابحث في هذا وانظر فيها دائماً كلما قرأت كلمات يعقوب عليه السلام، والتي تحتاج أن  
 تقرأها كثيراً ومن أجل هذا مطلوب أن تقرأ القرآن كثيراً لتعايش هؤلاء الكرام.

\*\*\*

إعجاز وآيات مع بعض الأنبياء، لم يحملوا معجزة مادية بل حملوا معجزتهم في  
 صدورهم .. في يقينهم بالله وبيئتهم في دعوتهم.

هود عليه السلام يقول ابن القيم وابن أبي العز الحنفى شارح الطحاوية أنه من الأنبياء الذين لم يكن لهم معجزات مادية قوية لكن معجزته كانت واضحة جداً في بيئته وإيمانه:

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ إِنَّ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبْنَاكَ بَعْضَ آلِ هَارُونَ سَمَوُ قَالَ إِنَّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدٌ فِي جَمِيعَاتِهِمْ لَأَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٣-٥٦].

يقول ابن القيم في كلام هام ونفيس: «حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام حتى قال له قومه: يا هود ما جئتنا ببينة، ومع هذا فبئس من أظهر البينات وقد أشار إليها بقوله: ﴿قَالَ إِنَّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدٌ فِي جَمِيعَاتِهِمْ لَأَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾، فهذا من أعظم الآيات أن رجلاً واحداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب غير جزع ولا فرح ولا خوار بل واثق بما قاله جازم به قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم ومما هم عليه إسهاد واثق به معتمد عليه معلم لقومه أنه وليه وناصره وأنه غير مسلطهم عليه. ثم أشهدهم إسهاد مجاهر لهم بالمخالفة أنه بريء من دينهم وأهنتهم التي يوالون عليها ويعادون ويبدلون دماءهم وأموالهم في نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم واحتقارهم وازدراءهم وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيد وشفاء غيظهم منه ثم يعاجلونه ولا يمهلونه، وفي ضمن ذلك أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك وأنكم لو رُمتموه لانقلبتم بغيتكم مكبوتين مخذولين.

ثم قرر دعوته أحسن تقرير وبين أن ربه تعالى وربهم الذي نواصيهم بيده هو وليه ووكيله القائم بنصره وتأييده وأنه على صراط مستقيم فلا يخذل من توكل عليه وآمن به ولا يشمت به أعداءه ولا يكون معهم عليه فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه في قوله وفعله يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب أن من صراطه المستقيم أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه وينزل به بأسه فإن الصراط المستقيم هو العدل الذي عليه الرب تعالى، ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام ونصره أوليائه ورسله على أعدائهم، وأنه يذهب بهم ويستخلف قوماً غيرهم ولا يضره ذلك شيئاً، وأنه القائم سبحانه على كل شيء حفظاً ورعايةً وتدبيراً وإحصاءً.

فأي آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم وهي شهادة من الله سبحانه لهم بينها لعباده غاية البيان وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله وفي الصحيح عنه أنه قال ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

ومن أسماؤه<sup>(١)</sup> تعالى (المؤمن) وهو في أحد التفسيرين المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم قضاءً وخلقاً، فإنه سبحانه أخبر وخبره الصدق وقوله الحق أنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته رسله حق فقال تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ عَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، أي القرآن فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثَمَرٌ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، فشهد سبحانه لرسوله بقوله أن ما جاء به حق ووعدته أن يرى العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضاً.

ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل وهو شهادته سبحانه على كل شيء فإن من أسماؤه الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له عليم بتفاصيله، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته، والأول استدلال بقوله وكلماته، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته<sup>(٢)</sup>.

وذكر مثل هذا ابن أبي العز شارح الطحاوية رحمه الله عنه أو عن شيخ الإسلام.

يقول الأستاذ سيد قطب: «ونقف أمام تلك المواجهة الأخيرة من هود لقومه؛ وأمام تلك المفاصلة التي قذف بها في وجوههم في حسم كامل، وفي تحد سافر، وفي استعلاء بالحق الذي معه، وثقة في ربه الذي يجد حقيقته في نفسه بينة: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾<sup>(٥٤)</sup> مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُ فِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظَرُونَ<sup>(٥٥)</sup> إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيئِهَا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ<sup>(٥٦)</sup> فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَخَّلْتُ رَبِّي لِمَا نَصَرْتُمْ وَلَا تَصْرُوهُنَّ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ».

إن أصحاب الدعوة إلى الله في كل مكان وفي كل زمان في حاجة إلى أن يقفوا طويلاً أمام هذا المشهد الباهر .. رجل واحد، لم يؤمن معه إلا قليل، يواجه أعتى أهل الأرض وأغنى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم، كما جاء عنهم في قول الله تعالى فيهم حكاية عما واجههم به أخوهم هود في السورة الأخرى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ<sup>(١٣٢)</sup> إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ<sup>(١٣٣)</sup> إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ<sup>(١٣٤)</sup> فَانْقَبُوا إِلَيْهِمْ وَأَطِيعُوا<sup>(١٣٥)</sup> وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(١٣٦)</sup> أَتَنْبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَأَيَّةٌ تَعْبَثُونَ<sup>(١٣٧)</sup> وَتَنَحُّذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ<sup>(١٣٨)</sup> وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ<sup>(١٣٩)</sup> فَانْقَبُوا إِلَيْهِمْ وَأَطِيعُوا<sup>(١٤٠)</sup> وَالَّذِي آمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ<sup>(١٤١)</sup> آمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ<sup>(١٤٢)</sup> وَرَحْنَتِ وَعَيْبُونَ<sup>(١٤٣)</sup> إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ<sup>(١٤٤)</sup> قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَزَّتْ أَمْ رَبَّنَا تُكُنُّ مِنَ الْوَاعِظِينَ<sup>(١٤٥)</sup> إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ<sup>(١٤٦)</sup> وَمَنْحَنُ بِمَعْدِيْنَ!﴾.

(١) الكلام متصل لابن القيم رحمه الله.

(٢) مدارج السالكين، ج ٣، ص ٤٦٤ - ٤٦٦.

فهؤلاء العتاة الجبارون الذين يبطشون بلا رحمة؛ والذين أبطرتهم النعمة؛ والذين يقيمون المصانع<sup>(١)</sup> يرجون من ورائها الامتداد والخلود! .. هؤلاء هم الذين واجههم هود - عليه السلام - هذه المواجهة. في شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه؛ وفاصلهم هذه المفاصلة الحاسمة الكاملة - وهم قومه - وتحداهم أن يكيده بلا إمهال. وأن يفعلوا ما في وسعهم فلا يباليهم بحال!

لقد وقف هود - عليه السلام - هذه الوقفة الباهرة، بعدما بذل لقومه من النصيح ما يملك؛ وبعد أن تودد إليهم وهو يدعوهم غاية التودد .. ثم تبين له عنادهم وإصرارهم على محادة الله وعلى الاستهتار بالوعيد والجرأة على الله ..

لقد وقف هود - عليه السلام - هذه الوقفة الباهرة لأنه يجد حقيقة ربه في نفسه، فيوقن أن أولئك الجبارين العتاة المتمتعين المتبشرين إنما هم من الدواب! وهو مستيقن أنه ما من دابة إلا وربها أخذ بناصيتها؛ فميم يحفل إذن بهؤلاء الدواب؟! وإن ربه هو الذي استخلفهم في الأرض، وأعطاهم ما أعطاهم من نعمة ومال وقوة وبنين وقدرة على التصنيع والتعدين! للابتلاء لا لطلق العطاء. وأن ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء، ولا يضره شيئاً، ولا يردون له قضاء .. فميم إذن يهوله شيء مما هم فيه، وربهم هو الذي يعطي ويسلب حين يشاء كيف شاء! ..

إن أصحاب الدعوة إلى الله لا بد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هذا النحو حتى يملكوا أن يقفوا بإيائهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم .. أمام القوة المادية. وقوة الصناعة. وقوة المال. وقوة العلم البشري. وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات .. وهم مستيقنون أن ربهم أخذ بناصية كل دابة؛ وأن الناس - كل الناس - إن هم إلا دواب من الدواب!.

وذات يوم لا بد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة؛ فإذا القوم الواحد أمتان مختلفتان<sup>(٢)</sup> .. أمة تدين الله وحده وترفض الدينونة لسواه. وأمة تتخذ من دون الله أرباباً، وتحاد الله!.

ويوم تتم هذه المفاصلة يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه، والتدمير على أعدائه - في صورة من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال - ففي تاريخ الدعوة إلى الله على مدار التاريخ! لم يفصل الله بين أوليائه وأعدائه إلا بعد أن فاصل أوليائه أعداءه على أساس العقيدة فاختروا الله وحده .. وكانوا هم حزب الله الذين لا يعتمدون على غيره والذين لا يجدون لهم ناصرًا سواه<sup>(٣)</sup> .. هـ.

(١) القصور الضخمة.

(٢) يعني من يرفض الإسلام كهوية وكشريعة عامة لازمة .. من اللاتنيين الذين يُسمون أنفسهم تسمية محرفة — (العلمانيين)، في مقابل من لا يقبل غير شريعة الله تعالى ولا يرتبط إلا بولاء الإسلام.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن.

وصنو هذه الآية موقف نوح في سورة يونس: ﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا لِي وَإِن كَانَ كِبَرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧١ - ٧٢].

ولهذا يربط الحافظ ابن كثير كلا هاتين الآيتين ببعضهما، ويفسر إحداهما بالأخرى، فيقول في آية يونس: «يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أخبرهم واقصص عليهم أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿نَبَأُ نُوحٍ﴾ أي: خبره مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا لِي﴾ أي: عظم عليكم ﴿مَقَامِي﴾ أي: فيكم بين أظهركم ﴿وَتَذَكِيرِي﴾ أي: إياكم ﴿بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: بحججه وبراهينه ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: لا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسا بل افصلوا حالكم معي فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إليّ ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: ولا تؤخروني ساعة واحدة أي مهها قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [إني توكلت على الله ربي وربكم] ﴿٥٥﴾» (١).

كيف نصل لهذه البيئة والوضوح وكيف نصل لهذه الثقة وهذه القوة، ولهذا الموقف؟.

كيف نرى أن كل ما سوى الله دواب مأخوذة من نواصيها بيد الله تعالى فيتحرر القلب من ذل الخوف والرهبة ويتطلع لله فقط خوفاً ورغبة؟.

كيف؟ وهل ذُكر كلمات هود في القرآن تفتح لنا هذا وتذكرنا به؟ وتلح عليك أن تحتك به وتعاشه وتحاول التأثير بهذا الرجل العظيم؟.

هنا تعاش .. وهنا موضع الأسوة، بل وهنا الهتم إن لم تكن على هذا الدرب وإن لم نصل لهذا المستوى العظيم.

ولعل هذا ما دفع امرأة للإنكار على ابن سيرين قراءته الكثيرة وقالت إني في سورة هود منذ ثلاثة أشهر لم أفرغ منها (٢).

(١) تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٥٥٩.

(٢) راجع زاد المعاد.

كذلك نفس الثقة واليقين في موقف موسى: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٣﴾ [الشعراء: ٦٠ - ٦٢].

يخشى الناس كلهم عندما تنسد أبواب النجاة ومنافذها .. فيبقى إيمانه يقول: ﴿لَكَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٣﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٤﴾ [الشعراء: ٦٠ - ٦٣].  
وإبراهيم حين ألقي في النار فيكتفي بربه حسبا كافيا ووكيلا بكل إليه أمره مع ثقة و يقين وتفويض إليه جل جلاله (حسبي الله ونعم الوكيل).

ووضوح رائع و يقين أيضا مع شعيب عليه السلام أن عبادته وطاعته لغير الله تعالى كذب بل افتراء للكذب وباطل ومخالف للحق، وبالتالي فهو لا يستطيع بأي حال التراجع عن هذا الحق الذي يحمله بغض النظر عن حجم وشكل وماهية التهديد الذي يتوعدونه به:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِي مَلِئْنَا قَالِ أَوْلُو كُنَّا كَرِيمِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفَتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَالِحِينَ ﴿٨٩﴾ [الأعراف: ٨٨ - ٨٩].

وانظر إلى خير الخلق وهو في الغار عندما يقلق أبو بكر ؓ أن يراهم المشركون ويخاف على هذا الدين فيقول: لو أن أحدهم نظر تحت قدمه لرآنا فيكون رده الكريم ؓ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»، فتتزل هذه الآيات الكريمة: ﴿إِلَّا نَضُرُّهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة: ٤٠].

وكلها مواقف إشهاد الله تعالى لإظهار الحق، ولا يقدم أحد عليها ولا يثبت إلا أن يكون الله ورضاه والجنة أثر عنده من كل شيء ولو في حال رؤيته للموت وتهديده به.

اليقين الذي لا يهتز إذا شك الجميع ..

والثقة والثبات والاطمئنان الذي يتمسك به إذا اضطرب الجميع حتى حين يوقن الصديق والعدو بالهلاك. ويبقى هناك اليقين بالله والعلم به مع حسن الظن به والتوكل عليه .. نحتاج إلى أن ننفق أعمارنا في الوصول لهذه المعاني وتمثل هذا الإيمان.

\*\*\*

لم يدر أيوب عليه السلام أن صبره لن يُثني عليه به فقط بل أن الله تعالى سيجعل له هذا إلى يوم القيامة ينطق به الملايين إثر الملايين مئات السنين: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا غُتْسَلُ بَارِدٍ وَشِرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمَشَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأَوْلِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَحَدِّبِيكَ نَضَعْنَا فَأَضْرِبُ بِهِ وَلَا تَحْتِثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ [الصافات: ٤١ - ٤٤].

ولم يكن يدري أنه سيكون أنموذجًا للبشرية إلى يوم القيامة .. لم يدر أيوب عليه السلام لكنه امتثل واستعان بربه في صبره.

فمثل هذا الصبر وتوطين النفس عليه والمران عليه والاستعانة بالله تعالى فيه يحتاجه المؤمن.

ومن يدري ماذا ستكون لأهلك .. لولدك .. لمن بعدك .. إن الموقف لن يموت بل يبقى فالعمل لك .. والأثر لك أيضًا ولا يحصر الأثر إلا رب العالمين، وقد يبارك فيه كما رأينا مع أيوب .. طبعًا مع حفظ مقامات الأنبياء.

وانظر إلى هضم نفسه .. يرى بلاءه لتقصير بسبب الشيطان فابتلي بهذا:

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾، فلم يضجر، ولم يعاتب ربه، ولم يَلُم الأقدار؛ بل عاد بالتقصير على نفسه.

\*\*\*

عندما تقرأ إرسال موسى تعلم قوته وشخصيته وهو يواجه فرعون .. فأى شخصية هذه التي اختارها الله تعالى لأظلم أهل الأرض وأشد البشر كفرًا وجحودًا وكبرًا؟.

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمٌ فَرَعَوْنَ ۗ أَلَا يَنفِقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٠ - ١١].

حتى أنه احتاج لآيات كبرى قبل التكليف بهذه المهمة: ﴿ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَازَمُوا إِلَيْكَ ۗ أَلَمْ يَكُن لَّهُ آيَاتٌ ۙ أَتَىٰ عَلَى الْغَالِيَةِ ﴿٢٣﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمٌ فَرَعَوْنَ ۗ أَلَا يَنفِقُونَ ﴾ [طه: ٢٣ - ٢٤].

قف هنا وتدبر.

فهي شخصية عظيمة وثقيلة .. والاستقواء بالله والتوكل عليه والافتقار إليه من أعظم الأدوات لمثل هذه المهام.

\*\*\*

نجد صدق الوعد في إسماعيل ضمن أوصاف نحتاج لعمر نفقه لتحصيلها، معاشة دينه مع نفسه وأهل بيته فيأمرهم بالصلاة والزكاة مراقبًا فيهم حقوق الله وعلى رأسها الصلاة، وحقوق الخلق وعلى رأسها الزكاة، رجلاً صادقًا في مأخذه لهذا الدين: ﴿ وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤ - ٥٥].

صدق وعد حتى لو كلفه أن يصبر على الذبح راضيًا مختارًا ..

كيف نعاش هذا .. كيف تكون بيوتنا .. أولادنا وأهلونا .. وكيف قيامنا عليهم؟!.

\*\*\*

واضح في كلامهم مع الإيذان أدب جَم ..

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

﴿١٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّنَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿ [الأعراف: ٥٩ - ٦٠].

فماذا كان رده على اتهامه بالضلالة البينة؟ ﴿ قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿١٦﴾ أُبَيِّقُكُمْ رَسُولَاتِي رَّبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿ [الأعراف: ٦١ - ٦٢].

ومع هود كذلك: ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّنَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿ [الأعراف: ٦٥ - ٦٦].

فماذا كان رده على اتهامه بالسفاهة؟ ﴿ قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٧﴾

أُبَيِّقُكُمْ رَسُولَاتِي رَّبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿ [الأعراف: ٦٧ - ٦٨].

وفي موضع آخر: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرُّنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرُّنَاكَ أَنْتَبَعَكَ إِلَّا

الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن يَبْدُوا الرَّأْيَ وَمَا نَزَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ

بَيْنَتِهِ مِن رَّبِّي وَهِيَ الْبَيْنَةُ رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِي فَفَعَيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْزِلًا مُّكْمَرًا وَآتَمَّرًا لَهَا كَرِهُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ وَيَتَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ

أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّكْتَفَرُونَ وَلَكِنِّي أَزِيدُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ وَيَتَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي

مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ [هود: ٢٧ - ٣٠].

وفي شأن صالح قال تعالى: ﴿ قَالُوا يُصَلِّحْ فَذَكَرْتَ فِيمَا مَرَجُوا قَبْلَ هَذَا أَنَّهُمْ ءَانَتْ أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي

شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبِينَ ﴾ ﴿٢٦﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَتِهِ مِن رَّبِّي وَهِيَ رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِي فَفَعَيْتُ عَلَيْكُمْ

إِنْ عَصَيْتُمْ هُمْ أَتَزِيدُ مِنِّي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿ [هود: ٦٢ - ٦٣].

وقال تعالى في شأن شعيب: ﴿ قَالُوا يَشْعَبُيْ أَصَلَوْتَك تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ

تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَرُ بِهَا وَإِنَّا لَنَرُّنَاكَ لَأَنَّ الْحَيْبَةَ الرَّشِيدَ ﴾ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَتِهِ مِن رَّبِّي

وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُلْحِقَ كُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَلَكْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا

تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿ [هود: ٨٧ - ٨٨].

هذا الأدب في مقابل الاستفزاز والجهالة فلا يزدادون إلا حِلْمًا، هذا مع الحقائق التي

يبلغونها فلا يأتي الأدب على حساب الحق الذي يحملونه.

\*\*\*

النصح والشفقة الشديدين النابعان من علمهم بخطورة الموقف على قومهم وما يؤديه

واقعهم إلى خسارتهم في الدنيا وفي الآخرة فعلمهم بالآخرة وتصورهم لها تصورًا كاملاً

وحقيقياً دفعهم لهذه الشفقة والإلحاح:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿ [نوح: ٥٠]، ﴿ وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَنْغَرِبَ لَهُمْ ﴾ [نوح: ٧].

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿نوح﴾

[١٠-٨]

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿نوح: ١٣- ١٤﴾

وكان كل نبي يعرب عن خوفه على قومه فقال عن هود: ﴿ وَأَذْكُرْ أَخَاعًا إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿الاحقاف: ٢١﴾

وقال نوح: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقِرُوا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿الاعراف: ٥٩﴾

وقال عن صالح: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَفْقِرُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَكُمْ إِنَّ رَبِّي لَبِيبٌ مُجِيبٌ ﴿هود: ٦١﴾

وقال عن شعيب: ﴿ قَالَ يَفْقِرُوا لِرَبِّهِمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّ يَتَّقُونَ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ الْفَكْرَ إِلَىٰ مَا أَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقُولُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿هود: ٨٨- ٨٩﴾

إنها الطيبة والإخلاص والشفقة على الخلق مع البراءة من الشرك ومن المخالفة الشرعية.

بل ويعربون عن أسفهم وحزنهم على هلاكهم بعد استفاضة البلاغ وبعد أخذهم، فقال تعالى عن صالح: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَفْقِرُوا لِقَدْ أبلغتكم رسالتي ونبئتكم لكم ولكن لا تُحِبُّونَ التَّصْحِيحَ ﴿الاعراف: ٧٩﴾

وقال عن شعيب: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَفْقِرُوا لِقَدْ أبلغتكم رسالتي ونبئتكم لكم فكيف ءاسى على قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿الاعراف: ٩٣﴾

ولم يكن خوفهم على أمهم كلمات مجاملة بل هم في القمة من الصدق .. فقد كان هذا هو شعورهم الحقيقي، ولا يكون هذا إلا مع معرفة ما هي النار.

\*\*\*

كل هذا مع بشرتهم ورحمة الله لبشرتهم لتأسى في هذا فلا تنقطع في الطريق ولا تياس .. ولنرحم إخواننا ونرحم بشرتهم: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَؤُسَفِ وَأَبْصَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتِنُوا تَذَكَّرْ يَؤُسَفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَفِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿يوسف: ٨٤- ٨٦﴾

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّا لَمَعَ الْكُفْرَيْنِ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَوَاهِي إِنْ جَبَلٍ يَعْصَمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعَهُ وَحَالٍ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَفِينَ ﴿هود: ٤٢- ٤٣﴾

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ. فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُ ابْنَهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْهُنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْطَأُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا أَغْفِرُ لِي وَتَرَحَّمْتَ عَلَيَّ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٧].

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّاتِ أَنْ يَقُولَنَّ أَتُوبُ أَنْ لَوْ كَانُوا أَهْلِي مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أُصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ ﴾ [التوبة: ١١٣ - ١١٤].

\*\*\*

الخوف الشديد من المخالفة. يأمر الله نبيه أن يقول: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَكْبَرُ مَخْلُصًا لَهُ دِينِي ﴾ [الزمر: ١٣ - ١٤].

وأمره أن يبلغ: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصِرِّفْ عَنَّهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَمِيمُ ﴾ [الأنعام: ١٥ - ١٦].

ويقول نوح: ﴿ وَيَقُولُوا مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٣٠].

وقال صالح: ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود: ٦٣].

مع تجريدهم لبشريتهم وأنهم مأمورون: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الاحقاف: ٩].

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْنَا آيَاتٍ مِنَ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المنكيات: ٥٠].

\*\*\*

الغيرة لله والغضب له؛ تعلقوا للشعيب أنهم ما تركوا رجه إلا لما كان رهطه فغضب لربه لا لنفسه فقال: ﴿ قَالَ يَقُولُوا أَرْهَطِي أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَخَذْتُمُوهُ وَرَأَيْتُمْ ظَهْرِي إِنَّ رَبِّي يَمَّا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود: ٩٢].

وقال عن هود: ﴿ قَالُوا اجْعَلْنَا لِعِبَادَتِكَ نُحْدَةً وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا يَمَانِيَّةٌ أَنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصِبْتُ أَنْتُمْ لُونِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيئَتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠ - ٧١].

وقال تعالى عن موسى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقُولُوا لِمَ يَعْبُدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّاهُمْ حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾ [طه: ٨٦].

﴿ قَالَ يَهْرُونَ مَامَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٢﴾ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا نَأْخُذُ بِلِحَافِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾

[طه: ٩٢ - ٩٤].

\*\*\*

وغير هذه المواقف كلها مطروح لكن مقصدنا الأساسي هو بيان أن الأمر لا يتم إلا بمعاشية واحتكاك بشخصياتهم من خلال كلامهم ومواقفهم وانفعالاتهم كل هذا من خلال معاشية كتاب الله تعالى وقراءته طلباً لهذه الرؤية وطلباً لهذا المأخذ، ومعرفة ما وراء الكلمات والمواقف من البعد وما يلزمها من المعاني التي لا تصدر الكلمات والمواقف إلا مع وجودها.

من أجل هذا يقرأ كتاب الله وتكرر قراءته مرات ومرات، تقف كثيراً وتكرر كثيراً ولا تشبع لأن نفسك تواقفة ومحتاجة بشدة إلى معاشية هؤلاء الكرام ..

\*\*\*

هكذا ينتج القرآن أشخاصاً في كل جيل لا يتقيدون بحدود زمنهم ولا يتأثرون بغالبية الناس في زمانهم بل يتخطون الحدود ويتصلون بأولئك الكرام - وعلي رأسهم أفضلهم وسيدهم محمد ﷺ - فيتأثرون بهم إلى حد ما قسم لهم، ويعودون بقسمات مختلفة وملامح جديدة.

ومن ثم يغيرون زمانهم وأمتهم للخير ويخرجون بها من أزمتها، وما هي إلا مواقف لكن لها عمقها ولها جهدها المبذول سلفاً للوصول إليها .. للقدره على بيان الحق وللقدرة على عرضه وبلاغه ونصره، ومنازلة الباطل.

\*\*\*

ثانياً: استعراض هذا المقصد في كتاب الله تعالى

مع الشخصيات المؤمنة بعد الأنبياء مواكب طيبة وأفراداً بارزين

غالب من يذكرهم القرآن من عموم المؤمنين هم أشخاص لهم موقف قوي في اختيار الحق كسحرة فرعون، قال السلف: كانوا أول النهار سحرة فجرة ثم آخر النهار شهداء بررة.

أي قوة يتحولون بها من مرتزقة متسولين متزلفين للقرب من فرعون إلى قوم كرام .. كبار .. معلمين .. أساتذة .. يأمرون فرعون وينهونه .. يستصغرونه ويضعونه حيث وضعه الله .. في مكانه الطبيعي .. عبد ضعيف .. ينصحونه ويشفقون عليه .. ويعرضون طعم النعمة التي ذاقوها يرجون أن لو ذاقها.

أي قوة .. أي إيمان وليد موقف على غير العادة .. لكنها لحظة اختيار نجحوا فيها وآثرهم بهارب العالمين.

أي إيمان .. أي وضوح .. أي رغبة في الآخرة غلبت عليهم فهان عليهم كل شيء.

\*\*\*

وإخوانهم أصحاب الأخدود، رغم أن السحرة على شريعة موسى وأصحاب الأخدود على شريعة المسيح .. لكنهم كل آمن بربه فوحده ولم يشرك به شيئاً واتبع الشريعة التي أمر بها في زمانه .. فهم إخوان ..

نفس الاختيار .. ونفس الاستعلاء على الباطل فاستعلوا على حريق النار.

يقول الأستاذ سيد قطب: «وتبدأ الإشارة إلى الحادث بإعلان النعمة على أصحاب الأخدود: ﴿قِيلَ لَصَاحِبِ الْأَخْدُودِ﴾، وهي كلمة تدل على الغضب، غضب الله على الفعلة وفاعليها، كما تدل على شناعة الذنب الذي يثير غضب الحليم، ونقمته، ووعيده بالقتل لفاعليه.

ثم يجيء تفسير الأخدود: ﴿أَتَارِدَاتِ الْوُقُودِ﴾ والأخدود: الشق في الأرض. وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه ناراً، فصارت النار بدلاً في التعبير من الأخدود للإيجاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها.

قتل أصحاب الأخدود، واستحقوا هذه النعمة وهذا الغضب، في الحالة التي كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم، ويزاولون تلك الجريمة: ﴿إِذْ هَرَّ عَلَيَّهَا قُودٌ﴾ ٦، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهوداً، وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم، وهم يوقدون النار، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار، قريبون من عملية التعذيب البشعة، يشاهدون أطوار التعذيب، وفعل النار في الأجسام في لذة وسعار، كأنها يثبتون في حسهم هذا المشهد البشع الشنيع!

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ٨ الذي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله، العزيز: القادر على ما يريد، الحميد: المستحق للحمد في كل حال، والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال! وهو الحقيق بالإيمان

وبالعبودية له. وهو وحده الذي له ملك السماوات والأرض وهو يشهد كل شيء وتعلق به إرادته تعلق الحضور.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ هُمْ أَظْهَرُونَ عَلَىٰ غَيْبَاتِنَا لِيَحْضُرُوا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود.. وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين، وتهدد العتاة المتجبرين. فالله كان شهيداً. وكفى بالله شهيداً. وتنتهي رواية الحادث في هذه الآيات القصار، التي تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه من نعمته وغضبه. فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد، ووراءه في حساب الله ما وراءه.

كذلك تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة. روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض. فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد! إنه معنى كريم جداً ومعنى كبير جداً هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض. ربحوه وهم يجردون مس النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب، ولأعدائهم الطاغين حساب.. يعقب به السياق<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

أَوْ رَجُلٌ أَنْبَرِيٌّ يَدْفَعُ عَنْ هَذَا الدِّينِ وَسُطُورَ الْأَفَاعِي .. مؤمن آل فرعون .. لم يعبأ بشيء وهو في بلاط فرعون تستولي على قلبه هيبة الله ويحدوه علمه بسننه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿غافر: ٢٨﴾. ﴿يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ آبَائِهِ إِنْ جَاءَنَا؟﴾ ﴿غافر: ٢٩﴾.

مشفق ناصح: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَنَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿غافر: ٣٠-٣٣﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿غافر: ٣٨-٤٠﴾.

﴿ وَتَقَوْمٌ مَّا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ، مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جُرْمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [غافر: ٤١-٤٣].

واثق ومتوكل: ﴿ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

فيفوز بالدارين ويصدق الله كلامه ويعلي شأنه، ويخسر عدوه: ﴿ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِمَا مَكَّرُوا وَحَاقَ بِقَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥].

من أين جاء بهذا العلم؟ وبهذه القوة؟

وبهذا القلب الندي المتصل بالله تعالى وبهذا اليقين العجيب؟

وكيف كانت هذه الثقة في ربه وفي وعده؟

وكيف هذا النصح والشفقة وحب الخير للخلق؟

فليُنظر في هذه المعاني.

\*\*\*

رَجُلٌ<sup>(١)</sup> يَكْتُمُ إِيمَانَهُ فِي لِحْظَةٍ مَا لَمَّا سَمِعَ تَهْدِيدَ الرَّسْلِ بِأَنَّهُ يَأْتِي مَهْرًا وَلَا نَاصِحًا: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْتَلْجُوا جُزْأً وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢٠-٢١].

وضوح في عقيدته .. لم تطمس عقيدته عقائد المتكلمين ولا فروخ المبتدعة من المرجئة والجهمية القدماء أو المعاصرين !!: ﴿ وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٢].

فيذكر توحيد ربه وموجب هذا التوحيد: أن الله فطره .. وإليه مرجعه، فيذكر من صفات الربوبية ما يوجب إفراده بالألوهية وتعلق القلب به سبحانه وتعالى وحده.

ويؤكد على ترك الشرك مع بيان سبب بطلانه: ﴿ أَلَمْ نَخُذْ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا إِنْ يُرِيدِ الرَّحْمَنُ يَضْرِبَ لَنَا نَحْرًا عَنِّي سَفَعَتُهُمْ شَيَئًا وَلَا يُنْقَدُونَ ﴿٢٣﴾ إِنْ يَدْرَأُكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [يس: ٢٣-٢٤].

ثم يصيح بصيحه ﴿ فَاسْمِعُونِ ﴾: ﴿ إِنْ يَدْرَأُكُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴾ [يس: ٢٥].

هذه مواقف إشهاد يجب الإعداد لها .. يجب أن تتغيها هذه الصورة .. وضوح الحق .. والإقدام فيه ونصره والثبات عليه.

\*\*\*

موقف إقدام مع ثقة ونصر يتخذه رجلان لا نعرف اسمها - ولا يضرهما - فيذكرها الله تعالى في تلاوة المحارِب إلى يوم الدين: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا أَدْخَلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى: «هنا تبرز قيمة الإيمان بالله، والخوف منه .. فهذان رجلان من الذين يخافون الله، ينشئ لها الخوف من الله استهانة بالجبارين! ويرزقها شجاعة في وجه الخطر الموهوم! وهذان هما يشهدان بقولتها هذه بقيمة الإيمان في ساعة الشدة؛ وقيمة الخوف من الله في مواطن الخوف من الناس. فالله سبحانه لا يجمع في قلب واحد بين مخافتين: مخافته - جل جلاله - ومخافة الناس .. والذي يخاف الله لا يخاف أحداً بعده؛ ولا يخاف شيئاً سواه: ﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ مُّكْرَبُونَ﴾.

قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب .. أقدموا واقتحموا. فمتى دخلتم على القوم في عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم؛ وشعروا بالهزيمة في أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم .. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

فعلى الله - وحده - يتوكل المؤمن .. وهذه هي خاصية الإيمان وعلامته؛ وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

مواقف يقين عند الخوف حين تختلط الأمور على الناس كلها .. فييقون يُذكرون بهذه الأوصاف: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّكَلَّفُوا اللَّهُ كَمَ مِنْ فَتَكٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ومواقف يقين عند بريق الشهوة وفتح الدنيا على الشخص فيهتز من يهتز من الضعاف ، ويثبت أهل الثبات الذين نعموا بنعمة الله تعالى بالصبر واليقين: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا لِلدُّنْيَا نَالُونَ إِنَّمَا هِيَ دُنُورٌ فَنُورٌ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٧٨) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩-٨٠].

\*\*\*

يقاتلون مع النبيين .. فيؤذون فيثبتون:

١- ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَاثُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فهنا يبرز قتالهم مع النبيين .

أو - حسب الوقف والابتداء على وجهي التفسير - يبرز دورهم مع النبيين أثناء القتال الطويل ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَاثُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾، فهنا يبرز قتال النبيين أنفسهم، ثم يبين ثبات الربيين معهم.

٢- أو يقتل النبيون ويبقون من بعدهم فيثبتون ، أو يُقتل الربيون أنفسهم - حسب القراءة؛ فهذه قراءة أخرى<sup>(٢)</sup>:

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن.

(٢) قراءة ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب.

﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ  
الضَّالِّينَ ﴾، وهنا يبرز استشهاد الربيين .

﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ  
الضَّالِّينَ ﴾، وهنا يبرز استشهاد النبيين ثم يبين ثبات الربيين بعد قتل الأنبياء على نفس المنهج لم يضعفوا  
عنه .

ويبقى دعائهم .. يهضمون نفوسهم .. يرون تقصيرها .. ويفتقرون إلى الله في الثبات فلا  
يعجبون بنفوسهم .. ويطلبون النصر على عدو ما عادوه إلا لوصف واحد هو الكفر .

فعدوهم هو عدو ربهم ومن أجل هذا عادوه .. وهذا فرع على حبهم لله فمن حبهم لله بغضهم  
لأعدائه .. وطلبهم إعلاء محبوباته من الأفعال والشرائع والأوضاع التي يحبها سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ  
قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٧) فَكَانَتْ لَهُمْ اللَّهُ  
تَوَابٌ اللَّهُ تَبَا وَحُسْنُ تَوَابٍ الْآخِرَةُ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧ - ١٤٨] .

\*\*\*

ثم انظر إلى قمتهم في صحابة محمد ﷺ: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ  
مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨] .

وقف كثيرا أمام: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾، هذا ما يجب أن تبحث عنه .. تبحث عما في قلبك .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُنْفِقُونَ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَبِصْرُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَوْلَىٰ بِك  
هُمُ الصَّدِيقُونَ ﴾ [يس: ٢٠ - ٢١]، هكذا كان هذا الدين هو محور حياتهم .. ثم تأتي الزوجة والولد والدار والمال  
بعد، في ذلك الترتيب، وعند التعارض يعرفون التصرف الصحيح ويزنون بميزان رب العالمين .  
إلى أي درجة هذا الدين في نفسك؟ .

واحذر عند الإجابة فعند المحكات العملية لا ينفع الادعاء .

ثم يذكر تعالى صنفاً آخر من أصحاب محمد ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ  
إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ  
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] .

قلوب لا تنظر إلى ما في أيدي إخوانها ولا لما فضلت به عليهم حتى لو تفضيلاً دينياً ..  
نعم يرجو أن يكون مثله .. لكن ليس في نفسه ألم أن أخاه أوتي فضلاً من الله .. قد تكون قصة  
الرجل والمرأة الذين آثرا ضيفا رسول الله على أنفسهما بل وعلى أبنائها أحد صور المعنى ..  
لكن الأمر أوسع من هذا .

فسبب النزول هذه القصة وغيرها .. لكن المعنى أعم من هذا، وهذا الأمر بالذات يحتاج إلى مراجعة كثيرة بسبب طبيعة النفوس المعاصرة ..

إن الناس تتألم لفتات حقير فضل أخوه عليه به، رغم أنه لو أوتي هذا قد يفسده، فالله أعلم بما يصلحنا<sup>(١)</sup> .. فهذه آية تصف شخصيات .. لتصل إليها تحتاج إلى جهد وتطهير نفس وتزكية وأن تجعل الوصول إليهم هدفك .. فقد جعل سبحانه شرط قبول من بعدهم أن يجوبنهم ويشنوا عليهم وأن يستغفروا لهم ويعترفوا بفضلهم وأن يتبعوا سبيلهم بإحسان: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْغِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهِجْرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

\*\*\*

ثم يأتي رجل كريم .. أبو بكر الصديق رضي الله عنه .. حينما تنقطع به الأمور هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار يطارذان بغرض القضاء على هذا الدين .. لحظة كانا مدار هذا الدين ونصره عليهما .. كان ينصر الله ورسوله .. كان يتقدم بين يدي رسول الله إذا ذكر أن العدو يمكن أن يأتيه من أمامه، وإذا ذكر أنه يمكن أن يأتيه من خلفه سار خلف رسول الله وهكذا عن يمينه وعن شماله، وكان يقول إن متُّ فرجل وإن متُّ أنت فامة: ﴿ إِلَّا نَصْرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

يقول البيضاوي: ﴿ إِلَّا نَصْرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ أي: إن لم تنصروه فسينصره الله كما نصره ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا ﴾، ولم يكن معه إلا رجل واحد فحذف الجزاء وأقيم ما هو كالل دليل عليه مقامه<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

وعندما تسمع بعد ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهِجْرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾، فاعلم أنهم قوم كان في ثباتهم ثبات هذا الدين حتى اليوم، وفي إيمانهم إيمان من جاء بعدهم، مقام أحدهم مع رسول الله لا يوزن؛ فقد كان أثره إلى يوم القيامة. نحن اليوم آمننا بالله ورسوله بسبب مقامهم هذا .. غدوتهم أو روحتهم .. خطواتهم يستخفون بها لنصر هذا الدين في أول أمره .. كان له ما بعده، وكان وزنه ثقيلاً عند الله ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد لما كان بينه وبين طلحة بن عبيد الله شيء: «يا خالد دع عنك أصحابي».

روى عبد الله بن الإمام أحمد قال: حدثنا عبد الله قال حدثني أبي قننا محمد بن عبيد عن إسما عيل يعني بن أبي خالد عن عامر قال شكنا عبد الرحمن بن عوف خالد بن الوليد إلى رسول

(١) يراجع فصل الاستشفاء بالقرآن العظيم، في هذا الكتاب، في علاج آفة الحسد.

(٢) تفسير البيضاوي، ج ١، ص ١٤٦.

الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد مالك وما لرجل من المهاجرين لو أنفقت مثل أحد ذهباً لم تدرك عمله»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن عمر: «لا تسبوا أصحاب محمد فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره»<sup>(٢)</sup>. وقال أيضاً: «لا تسبوا أصحاب محمد فلمقام أحدهم ساعة خير من عبادة أحدكم أربعين سنة»<sup>(٣)</sup>.

وعن أبى سعيد الخدري قال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم، ولا نصيفه»<sup>(٤)</sup>.

ومن مراسيل الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أصحابي في الناس كمثل الملح في الطعام»، ثم يقول الحسن: هيهات ذهب ملح القوم»<sup>(٥)</sup>.

وعن أنس بن مالك قال: قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله إنا نُسبُ! فقال رسول الله ﷺ: «من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»<sup>(٦)</sup>.

وعن ابن مسعود: «من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً وأحسنها حالاً، قومًا اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه؛ فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»<sup>(٧)</sup>.

إنهم قوم تعرفوا على الحق حين عميت عنه الأبصار وتكررت له أخرى، وبركة ثباتهم على هذا الدين أسلم من بعدهم ولحق بهم من خلفهم، ونحن اليوم مسلمون ببركة هذا الثبات»<sup>(٨)</sup>.

وهكذا في مواقف الفتنة والأوقات العصيبة؛ من يثبت يثبت بثباته أمة، ويحفظ له موقفه إلى قيام الساعة، ويستتقذ بثباته على الحق الكثير من الغرقى.

هنا الأسوة، وهذا ما يجب أن نعد له دائماً. كما فعل هؤلاء الذين نجونا بثباتهم؛ فجزاهم الله عنا وعن الخلق خير الجزاء.

\*\*\*

(١) فضائل الصحابة، ج ١، ص ٥٥.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٧.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠.

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠.

(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٨.

(٦) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٢.

(٧) الموافقات، ج ٤، ص ٧٨ - ٧٩.

(٨) بعد فضل الله تعالى.

## ثالثاً : استعراض هذا المقصد في عرض القرآن

## لنساء مؤمنات لهن وزنهن في هذا الدين إلى يوم القيامة

عَرَضَ امرأة تعالت على السلطنة والمال والدينا والقصور وآمنت واستشهدت طالبة من ربهـا - دعاءً وتضرعاً - عوضاً بجواره عن جوار فرعون، وكان بيدها أن تكون لها صولة تسمع لها الدنيا .. هذا اختيار يسقط فيه أحياناً من ينتسب إلى علم شرعي أو ادعاء دعوة أو غيره .. لا يسقط بمثل هذا الذي تخلت عنه آسية بل بقلامة ظفر مما تقربت بتركه لله. هذه تحتاج إلى معايشة من المسلمين ومن المسلمات ليعرفوا بأي شيء ضحوا لله في مقابل أن يكون الموت أحياناً هو البديل ناهيك عن ترك حظ قليل من حظوظ الدنيا، أو تفاوتاً بين مراتب أهلها: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِحْتِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِحْتِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحریم: ١١].

\*\*\*

أختها في هذا الدين مريم العابدة بشريعة المسيح عليه السلام، فهما مؤمندان بدين واحد، وكلٌ اتبعت ما أمرت به في زمانها من الشرائع.

جُعِلت رمزاً للعفة، وكثير كثير هن المؤمنات العفيفات لكن هذه عفة خاصة مع تعبد متميز.

ففي واقع كواقعنا المعاصر؛ يدغدغ الشهوات ويلعب على أوتارها ويلح عليها .. وتهون فيه أعراض كثيرة، بل وتتنافس البعض في إظهار ما حرم الله من الزينة على سبيل التزين والتباهي، وإظهاره أمام الخلق بلا حياء .. كم تحتاج المسلمات أن تنطبع بمثل هذه .. حتى أن الله تعالى لينص على عفتها نصاً: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١]، ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَنِينِ ﴾ [التحریم: ١٢].

وموقف هام عندما يُعد أحد للاصطفاء ولمهمة خاصة، ولتحمل مشاق لا يتحملها سواه أو ليحمل عبئاً خاصاً، أو يهياً لتفضيل معين، هناك إعداد لهذا الشرف، وهذا الإعداد هو التعبد الخاص لرب العالمين: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٣]، فهو اصطفاء لتعبد سابق، ولما يعلمه تعالى فيها من الخير، وهو مؤهل لتعبد آخر تهيئة للمهمة القادمة.

ولهذا يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمرها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله وقضاه مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة حيث خلق منها ولدًا من غير أب فقال تعالى: ﴿ يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾، أما القنوت فهو الطاعة في خشوع كما قال تعالى: ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونَ ﴾.

وقال مجاهد: كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها، والقنوت هو طول الركود في الصلاة يعني امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ ﴾، قال الحسن: يعني اعبدني لربك ﴿ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أي: كوني منهم، وقال الأوزاعي: ركدت في محرابها راكعة وساجدة وقائمة حتى

نزل الماء الأصفر في قدميها رضي الله عنها وأرضاها. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمتها من طريق محمد بن يونس الكديمي وفيه مقال: حدثنا علي بن بحر بن بري حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير في قوله: ﴿يَمْرَمُ أَقْنِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي﴾ قال: سجدت حتى نزل الماء الأصفر في عينيها<sup>(١)</sup>.

هكذا يتربى المجاهدون، والدعاة، وحملة هذا الدين.

\*\*\*

تَحَيَّرَ زوجات النبي ﷺ بين بيت النبوة مع شطف العيش بل ثلاثة أشهر لا يوقد في بيوتهن نار فلا يطبخ في بيوتهن شيء .. وكان هذا بسبب إشارته ﷺ أضيافه وإخوانه ومحاييج المسلمين على نفسه وأهل بيته، كما قالت عائشة رضي الله عنها: لو شئنا أن نشبع شعبنا ولكن محمداً ﷺ كان يؤثر على نفسه<sup>(٢)</sup>.

يُحَيَّرَنَ بين هذا وبين التسريح الجميل فلا يفكرون ولا يستأمرن أحداً بل اخترن الله ورسوله حتى ألزمه الله بهن في الدنيا لأنهن قد اخترن له أيضاً في الآخرة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَأُزَوِّجَكِ إِنْ كُنْتِ تَرْضِينَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَى لَكَ كَمَالٌ وَأَسْرَحَكِ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتِ تَرْضِينَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْحَيَاتِ مِمَّنْ كُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

فلما اخترن أنزل الله تعالى ملزماً نبيه بهن لأنهن صرن زوجاته في الدنيا والآخرة: ﴿لَا يَجِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْ أَرْوَاحٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

من تقرأ القرآن فلتعش - لا تقرأ فقط - بل تعيش مع هؤلاء، سيغيرن هذه الشخصيات الهزيلة المعاصرة .. سيغيرن الادعاء المتفشي بضمون ضعيف إلى ما هو أفضل .. كم نحتاج إلى هذا؟ وكم نحتاج نساؤنا وبناتنا وأخواتنا لهذا وكم نحتاج جميعاً إلى هذا؟

\*\*\*

هذا كنز مفتوح وفرصة لا تعوض .. أن تعيش هنا مع الأنبياء، ومع خير الخلق بعدهم، وأن تطوي الزمان لتعايشهم ثم ترجع بصفاتهم وعمقهم وملاحمهم إلى واقعنا المعاصر .. كم يحتاج الزمان إلى هذا .. بل والوجود كله. اختر ما تشاء.

هكذا يُقْرَأُ القرآن .. وهكذا يُفْهَمُ .. وهكذا تتأثر به .. ومن أجل هذا تكون تكرر القراءة كثيراً أثناء الليل وأطراف النهار من أجل معايشة هؤلاء الكرام والتأثر بهم ومحاولة اللحاق بهم .. فمن قرأ ولم ينطبع هؤلاء فليقرأ ثانية وثالثة .. ففي هذا تفتى الأعمار، وفي هذا الكتاب الكريم تكون التربية ..

(١) تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٤٨٢.

(٢) شعب الإيمان، ج ٢، ص ١٧٣.